

الأندلس .. كيف ضاعت ؟

على محمد جريشه

مقدمة :

بلد دام فيه حكم الاسلام ثمانية قرون ، أعطى الدنيا ما لم يعطه بلد آخر ، كان باب المسلمين الواسع الى أوربا ، وكان أخصب بقاع الارض - بعد مكة والمدينة - انتاجا بشريا فريدا .. فمنها ابن حيان القرطبي (شيخ المؤرخين) وصاحب التفسير الكبير (الجامع لأحكام القرآن) ، ومنها ابن خلدون مؤسس فلسفة التاريخ ومؤسس علم الاجتماع وصاحب مقدمة ابن خلدون ، ومنه ابن حزم (الظاهرى) صاحب المحلى (٩ اجزاء) والأحكام فى أصول الأحكام (فى أصول الفقه) فضلا عن أربعمئة مجلد آخر ... الى غير ذلك فى مجالات الكيمياء والفيزياء ، والطب وغيرها من العلوم .

ولم يحدث أن دخل الاسلام بلدا وخرج منه ، لكن الاندلس مثل فريد .. يغرى المسلمين بالمزيد من الدراسة، كما يغرى غيرهم بالمزيد من العدوان لتكرار المثل الفريد !

وبيانا لأسباب الضياع تقول بعون الله فى هذه السطور :

اولا - ترف مدمر :-

دب الترف فى عروق الحاكمين ، وهو نذير الدمار ، واذا أردنا ان نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحقّ عليها القول فدمرناها تدميرا ، (١) .

فعرف البلد المسلم القينات ، والاماء ، والتشييب بالنساء ، والعزف والغناء ، وتشبيد القصور الفارهات (مثل الزهراء ، والكامل ، والجرد ، والحائر، والروض ، والمعشوق ، والمبارك ، والرستق ، والتاج ، وقصر السرور) وانهمك الناصر فى عمارة الزهراء حتى ترك الجمعات ، فرقى الامام منذر بن سعيد ينذر بالهلاك ويقول :

،،أتبنون بكل ريع آية تعبثون ، وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون، واذا بطشتم بطشتم جبّارين ، فاتقوا الله واطيعون ، واتقوا الذى امدّكم بما تعلمون . امدّكم بأنعام وبنين ، وجنّات وعيون ، انى أخاف عليكم عذاب يوم عظيم ،، (٢) . ثم نوّه بالزهراء وتلا قول الله سبحانه ،، أقمن أسس بنيانه على تقوى من الله ورضوان خير أم من أسس بنيانه على شفا جرف هار فانهار به فى نار جهنم والله لا يهدى القوم الظالمين، لا يزال بنيانهم الذى بنوا ريبة فى قلوبهم الا أن تقطع قلوبهم والله عليم حكيم ،، (٣) .

وسقط فريق من الحكام فى الجهر بالمعصية ، والجهر بالمعصية جريمتان .. جريمة المعصية ، ثم جريمة الجهر بها ، لأن فى الجهر بها اغراء وتزيين لها ، واذا كان الجهر من الحُكّام ، وهم فى موضع القدوة ، فالجريمة أشد والمصيبة أعظم !

وفى هذا تصبح القراءة الأخرى التى ترد على آية الهلاك بالتurf بتشديد الميم فى ،، أمرنا ،، . ،، واذا اردنا أن نهلك قرية أمرنا

مترفيها ففسقوا فيها فحقّ عليها القول فدمرناها تدميرا»، (٤) .
الترف ينزل الى العامة كذلك :-

وسرى الترف وما يعقبه وما يصاحبه الى أوساط الناس فعرفوا
كذلك العزف والغناء ، وعرفوا القينات والخمور ، وتعاونوا على الإثم
والعدوان ومعصية الرسول .. وارتخت الاعصاب ، وترهلت الأجساد و
نعمت الاطراف ، وعزفت النفوس عن الجهاد ..
الغزو الفكرى يصحب الترف ويعقبه :-

وصاحب الغزو الفكرى المدعم من الكنيسة الترف وأعقبه ، وبلغ
عدد المبشرين فى الأندلس المسلمة ألفا من المبشرين ، وساندهم فى
المدارس اربعمائة وخمس وثمانون .. وتولى البابا تمويل الخمور التى
تسرى بين صفوف المسلمين حتى بلغ انفاقه فيها خمسمائة الف
فلورين سنويا .

ثانيا - الشقاق بين صفوف المسلمين :-

ومع الترف ، والغزو الفكرى ، تزواج الامراء من النصارى ، وضرب
الغنى بالله ،، اسما ،، المدعو أبا الحسن المثل اذ تزوج من النصرانية
ثريا ، واستعان من بعد بأهلها ملوك قشتالة على ابن أخيه الزعل ،
ومن قبله ومن بعده تساقط أمراء آخرون .

ودب الخلاف بين الامراء ، ومن بعدهم سرى فى صفوف المسلمين،
وألهبته عصبية مقبنة بين القحطانيين والعدنانيين ، وبين العرب
والبربر ، وعرفت الاندلس ثورات وحروب داخلية وبلغ السقوط مداه ،
حين راح بعض الامراء يستعين بالنصارى على البعض الآخر .

وتناسوا أمر الله : ،، يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوى
وعدوكم اولياء تلقون اليهم بالمودة ، وقد كفروا بما جاءكم من
الحق ... ،، (٥) ،، ،، يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى

أولياء بعضهم أولياء بعض ، ومن يتولّهم منكم فانه منهم ، انّ الله لا يهّدى القوم الظالمين ، (٦) .

فالتنازع الذى وقع نذير الفشل ، فاذا كان معه استعانة بغير المسلمين واتخاذهم من دون الله اولياء فالفشل أشد ، وذهاب الريح أقرب : ، ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم .

ثالثا - حشود النصارى تقتحم ديار المسلمين :

ومع الحشود التى كانت تتربص خلف الجبال ، والتى فات المسلمين أن يطهروا الارض منها .. ومع الانهيار الذى أصاب المسلمين فى أنفسهم بالترف ، وفى صفوفهم بالشقاق تحركت تلك الحشود لتتقض على المسلمين من خلف ظهورهم ، وكانت أول غزوة عام ١٠٨٦ هـ ليتسلموا طليطلة من ملكها العاجز التافه المسمى خطأ بالقادر ، ليعقب ذلك بعشر وثلاث سنوات سقوط بيت المقدس فى أيدي الصليبيين (عام ١٠٩٩ هـ) ليتأكد ان المسلمين بناء واحد اذا أصيب فى جانب أمكن ان يتهاوى فى جانب آخر .

وفى الخامس عشر من صفر عام (٦٠٩ هـ - ١٢١٢م) دارت آخر معركة بين قوات الموحدين وقوات قشتالة يقودها ، الفونس الثامن ، ليهوى على الموحدين ويرتفع علم الصليبيين ، وليباد لأول مرة فى التاريخ شعب بأسره ، فيقتل ثلاثة ملايين ، ويروح الباقون ما بين جريح وطريد ، ولا يبقى للمسلمين غير البكاء على الاطلال .

وبعد :

.. فهل لنا ان ندرك ان بداية الضياع انهيار داخل النفس .. طلبا للدنيا وبعدا عن الآخرة يصل حد الترف الداعر الذى أنذر الله أصحابه بالهلاك والدمار ، ثم انهيار داخل الصف تشاحنا وتنازعا يصل حد أن يقتتل المسلمان بسيفهما ، وحد أن يستعين البعض على

البعض باليهود والنصارى بعد أن يتخذهم أولياء!، ثم يأتي ضياع البلاد والعباد من بعد ذلك .. تفريطا فى ميراث الآباء والاجداد الذى شيده بعرقهم ورووه بدمائهم ودماء أبنائهم .

.. وهل لنا ان ندرك بعد ذلك .. أن بلادا ضاعت من بعد الاندلس بذلت فيها من قبل الدموع والدماء ! .. حتى بلغ الأمر ضياع مسرى رسول الله صلى الله عليه وسلم وثالث الحرمين وأولى القبلتين .
 ... وهل لنا أن ندرك ان التاريخ يعيد نفسه ، وأن سنة الله فى خلقه ماضية .. ما أقبل المسلمون على الدنيا وتركوا الجهاد ، وما أقبلوا على الترف والفساد تشرب من قلوبهم ، وترع به نفوسهم .. لينتظرهم المهلاك والدمار .

.. وهل من عودة سريعة الى الله قبل أن ندعو فلا يستجاب لنا ؟!
 عودة نصطلح فيها مع ربنا ، ونصلح معها فساد قلوبنا ، وفساد ذات بيننا ..!

.. ونعرف أن الطريق الى الاندلس مرة أخرى .. لا بد ان يبدأ باستواء النفس ، ثم استواء الصف .. ثم يمر من بعدها من كراتشى الى القاهرة الى عمان ودمشق .. الى فلسطين .. ومن بعدها الى طرابلس فتونس فالدار البيضاء .. ثم الاندلس .. انه طريق طويل وفى الوقت نفسه شاق وشائك .. لكن لا بد منه للوصول ..

«ولينصرنّ الله من ينصره انّ الله لقوى عزيز»

هوامش

- ١ - الاسراء : ١٦ .
- ٢ - الشعراء : ١٢٨ - ١٣٥ .
- ٣ - التوبة : ١٠٩ ، ١١٠ .
- ٤ - الاسراء : ١٦ .
- ٥ - المتحنه : ١ .
- ٦ - المائدة : ٥١ .

